مواقف لعلماء السلف الصالح من الحكام الظلمة

بقلم : شفيق محمد الرقب

○ **إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقابة ..**
« حديث شريف »

○ **كان علماء السلف قادة خير ومنارات هدى وسياجا منيعا يصد كل من جمح به هواه ..**

كان كثير من علماء السلف الصالح من المسلمين من تلك النماذج الفذة . فقد ظلوا في يقظة دائمة تجاه الحقوق والواجبات التي يتطلبها منهم الاسلام . فارتبط لديهم الفكر بالعمل . والقول الصالح بالفعل الصادق . وضربوا أروع الأمثال في التلازم بين الفكر النظري والتطبيق العملي . وهم في ذلك يستوحون روح هذا الدين الذي يرسم الأفق الأعلى للحياة . ويطلب من معتنقيه ان يتجهوا إليه . ويحاولوا بلوغه . لا بأداء العبادات فحسب . وإنما بالتطوع للقيام بما هو أعلى من العبادات وأشق منها . فاستحال الاسلام فيهم نماذج إنسانية تعيش . ووقائع عملية تتحقق وتترك آثارها في الحياة . ومن ثم كان التاريخ الاسلامي مليئاً بصور من البطولات الحية التي سجلها علماء السلف الصالح في شتى مناحي الحياة .

مواقف خالـــــدة ..

ولعل أروع هذه البطولات تلك المواقف الخالدة التي سجلها العلماء من الأمراء والحكام الذين خرجوا عن جادة الأمر . وغرتهم الحياة الدنيا . فاتبعوا أهواءهم حرصاً على الحكم والسلطان فقد التزم أولئك العلماء بنصحهم . وتصويبهم . وصدهم عن الظلم . وتبصيرهم بالعاقبة . ولم تأخذهم في ذلك لومة لائم . لأنهم امتثلوا لقول النبي صلى الله عليه وسلم يخبرهم : **« سيكون أمراء فسقة جورة . فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم . وأعانهم على ظلمهم فليس مني وليس بوارد علي الحوض »** . فخافوا أن ينزل الله عليهم سوط عذاب . ويحشرهم مع الظالمين . ويكون مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً . لذلك قاموا بالواجب خير قيام . وألزموا أنفسهم هدي النبي عليه السلام . فلم يتركوا ظالماً يتعدى حقوق الله متجبراً في الأرض إلاّ وقفوا في وجهه وقالوا ما يرضي ربهم . وان أسخط النّاس عليهم .

ومواقف علماء السلف الصالح من الحكام الذين بدر منهم الانحراف في العقيدة والسلوك . ودخلوا مداخل الظالمين بفسقهم كثيرة . نذكر منها على سبيل المثال :

الحســن البصري ..

[١] لما ولي عمر بن هبيرة الفزاري العراق . وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك . استدعى الحسن البصري ومحمد بن سيرين والشعبي . فقال لهم : **إن يزيد خليفة الله استخلفه على عباده . وأخذ عليهم الميثاق بطاعته . وأخذ عهداً بالسمع والطاعة . وقد ولاني ما ترون . فيكتب إلي بالأمر أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر . فما ترون ؟**

فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقية . قال ابن هبيرة : **ما تقول يا حسن ؟** فقال : يا ابن هبيرة . خف الله في يزيد . ولا تخف يزيد في الله . إن الله يمنعك من يزيد . وإن يزيد لا يمنعك من الله . يا ابن هبيرة . إن تعص الله فإنما جعل الله السلطان ناصراً لدين الله وعباده . فلا تركبن دين الله وعباده لسلطان . فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

الأوزاعي ...

[٢] وعندما قدم عبد الله بن علي العباسي الشام . وقد قتل من قتل من بني أمية بعد ذهاب دولتهم . استدعى الإمام عبد الرحمن الأوزاعي . وهو في جنده وحشمه . وقال له : **« ما تقول في دماء بني أمية ؟** قال الأوزاعي : **قد كان بينك وبينهم عهود . وكان ينبغي ان تفي بها . قال الأمير العباسي : ويحك . اجعلني وإياهم**

□□ تربى في ظل العقيدة الاسلامية نماذج من البشر يحسبهم المرء انهم جبلوا من طينة غير تلك التي جبل منها سائر الخلق الإنساني ، نماذج آمنت بإله واحد لا شريك له ، وان الامر كله بيده ، فعاشت للحق ، وتمسكت به وصبرت عليه ، وجاهدت الباطل ، ونهت عنه ، وتحملت تكاليفه العسيرة برضى وطمأنينة ، لانها تعلم حق العلم ان العطاء من الله كبير ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ □□

لا عهد بيننا ، قال الإمام : فاجهشت نفسي ، وكرهت القتل ، فتذكرت مقامي بين يدي الله تعالى ، فلفظتها ، وقلت : دماؤهم عليك حرام ، فغضب الأمير وانتفخت عيناه واوداجه ، فقال : ويحك ، ولم ؟ اوليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اوصى لعلي ؟ قلت لو اوصى لعلي ما حكم الحكمين ؟! فسكت وقد اجتمع غضبه ، فجعلت اتوقع راسي يسقط بين يديه ، فأشار بيده هكذا ، واومأ ان اخرجوه .. فخرجت .

حطيط الزيات ...

[٣] وروي ان حطيطاً الزيات جيء به إلى الحجاج ، فلما دخل عليه قال : انت حطيط ؟ قال نعم ، سل عما بدا لك ، فإني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال : إن سئلت لأصدقن ، وإن ابتليت لأصبرن ، وإن عوفيت لأشكرن . قال : فما تقول فيَّ ؟ قال : اقول انك من أعداء الله في الأرض ، تنتهك المحارم وتقتل بالظنة .

قال : فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟ قال : اقول انه اعظم جرماً منك وإنما انت خطيئة من خطاياه . فقال الحجاج : ضعوا عليه العذاب . وما زالوا يعذبونه ، وما سمعوه يقول شيئاً ، فقيل للحجاج : إنه في آخر رمق ، فقال : اخرجوه فارموا به في السوق . قال الراوي واسمه جعفر : فاتيته انا وصاحب له ، فقلنا له : حطيط الك حاجة ؟ قال : شربة ماء ، فأتوه بشربة ، ثم مات ، وكان ابن ثماني عشرة سنة رحمه الله .

سفيان الثوري ...

[٤] وعن سفيان الثوري قال : ادخلت على أبي جعفر المنصور بمنى ، فقال لي : ارفع إلينا حاجتك ، فقلت له : اتق الله فقد ملأت الارض ظلماً وجوراً . قال : فطأطأ راسه ثم رفعه ، فقال : ارفع إلينا حاجتك ، فقلت : إنما انزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والانصار ، وأبناؤهم يموتون جوعاً ، فاتق الله واوصل اليهم حقوقهم ، فطأطأ راسه ثم رفعه فقال : ارفع الينا حاجتك ، فقلت : حج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال لخازنه : كم انفقت ؟ قال بضعة عشر درهماً ، وارى ههنا اموالاً لا تطيق الجمال حملها ، وخرج .

العز بن عبد السلام ..

[٥] وعندما حالف الملك إسماعيل الصليبيين ، وسلم لهم صيدا وغيرها من الحصون الاسلامية وذلك لينجدوه على نجم الدين بن ايوب ملك مصر ، انكر عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء آنذاك هذه الفعلة ، وحاسب الملك عليها من على المنبر يوم الجمعة ، وذم الملك وقطع الدعاء له من الخطبة ، فأخبر الملك بذلك ، فورد كتابه بعزل ابن عبد السلام عن الخطابة واعتقاله ، ومنعه من الافتاء في الناس ، ثم بعث إليه الملك بعده ويمنيه ، فقال له الرسول : تعاد إليك مناصبك وزيادة ، وما عليك إلا ان تنكسر للسلطان ، فما كان جواب الشيخ إلا ان قال : « والله ما ارضاه ان يقبل يدي يا قوم انتم في واد وانا في واد » .

وهكذا استحالت المعرفة لدى علماء السلف الصالح طاقة فاعلة مؤثرة تحقق مدلولها في عالم الواقع وتسعى إلى بناء مجتمع تتمثل فيه العقيدة ، طاقة تنشىء وتعمر ، وتغير وتطور ، فكان اولئك العلماء قادة خير ، ومنارات هدى ، وسياجاً منيعاً يصد كل من جمح به هواه .

وقد ابدى العلماء المسلمون ، وإلى أمد غير بعيد ، حساسية فائقة تجاه الحكام باعتبارهم يتحكمون بمصير الأمة ، فلم يتهاونوا معهم إذا ما بدر منهم ادنى تقصير او تفريط او انحراف ، بل كانوا يتصدون للفساد من بدايته : **بالحكمة والموعظة الحسنة حيناً ، والتعنيف والترهيب حيناً آخر** ، وكان لهذا النهج دور كبير في الحد من طغيان الحكام وإيقاظ ضمائرهم ، والحفاظ على جماعة المسلمين من الانحراف المهلك الذي لم تقع فيه إلا حين رفع العلماء أيديهم ، وتراجعوا عن واجباتهم ومسؤولياتهم الشاملة ، وحصروها في إطار العبادات والفرائض والتفكير المجرد واستسلموا ، واسلموا انفسهم لسلاطين جائرين تكبروا في الأرض بغير الحق ، واتخذوا سبيل الغي سبيلاً ، والحالة هذه فإنه ليس أمام علماء المسلمين خاصة والأمة عامة إلا ان تسعى جاهدة لنصح اولئك الحكام

« حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ » ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : « الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » .